تفاردوفسكي

عبادة الفرد في الأدب الروسي المعاصر

بقلم حبيلي عبد الرحمن

منذ اشهر قليلة فجر الشاعر السوفياتي ا. تفاردوفسكي قصيدته الرائعة : « تيوركين في هذا العالم » لقد قرأ الشاعر ملحمته على « نيكيتا خروشوف » بعد مؤتمر ليننجراد الذي درس مشاكل الرواية المعاصرة ونشرت الملحمة في جريدة « الازفستيا» و مجلة «نوفي‌مير» التي يرأس تحريرها تفاردوفسكي .

ولم يحظ عمل فني في العام الماضي بالنقد والتحليل، واختلفت فيه وجهات النظر النقدية بمثل ما حظيت به هذه الملحمة الشجاعة .

وتتلخص الملحمة في التالي : تيوركين هذا النموذج المجسد للجندي الروسي الذي قاوم جحافل الفاشست ببطولة اسطورية ، يحمل معه بساطته وآلامه ، ضعفه وطموحه ، انه انسان بسيط « نمذجه » تفاردوفسكي حتى اصبح شخصية حقيقية ، يعرفها القراء السوفيت حتى تكاد أن تلمس في واقع الحياة .

لقد مات « تيوركين » في العمل الفني الاول ، والفائق الروعة لتفاردوفسكي . ولكنه يعود من جديد لكوكبنا ، ويواجه بالروتين القاتل ، انه يصبح جنديا رغم انفه بلا ذنب جناه ، لقد كان الزمن الذي صادف عودته .. هو بالضبط ذلك الوقت الذي عاش فيه ستالين . مستغلا سلطاته المطلقة .. وفي النهاية يترك ـ تيوركين ـ هذا العالم مخلفا وراءه حسرة لا توصف .

استغل تفاردوفسكي بجدارة الاساطير والمعتقدات المترسبة ، والتي تتعلق بالبحث ، مؤكدا ان العمل الواقعي، يمكن ان يستخدم الاسطورة بكل غناها وايحاءاتها اذا اعطى لها دلالة جديدة ومفهوما عصريا .. ومن خلال العلاقات المتشابكة في الملحمة يلتقط تفاردوفسكي بعينيه الحادتين مظاهر التناقض ، ونقاط الضعف في المجتمع ويشرحها بمشرطة القاسي ، انه يلقي الضوء على الاورام والقروح ، غير هيا بمن النقد الذي بلغ من الجرأة الثورية الى الحد الذي يعتبر نقلة جديدة في الادب السوفيتي الحديث .

وتفاردوفسكي من الشعراء القلائل الذي يمتلكون ناصية تراثهم اللغوي بجدارة . ويستقي اسلوبه من اللحم الحي ، يغترفه من الحياة اليومية ، وهو في ذلك لا ينقل اعتباطا وانما يصفي وينتقي ، حتى يغدو الاسلوب نمذجة اخرى تتساوى مع المضمون ، وتفتح له آفاق البلاغة والوحدة .. واذا وضعنا في الاعتبار الاول اهمية الملحمة من ناحية مضمونها النقدي ، فاننا بالدقة نستطيع ان نقيم هذا العمل ـ في المجالين المضموني والشكلي ـ وبالرغم من ذلك فقد وقع تفاردوفسكي ـ وهذه وجهة نظرنا ـ في اخطاء ونواقص من ناحية المعمار الفني ، نلخصها في التالي:

لقد اكثر تفاردوفسكي من التبرير او ما يسمى باللغة الروسية « موتيفيروفكا » ففي مدخل الملحمة يتحدث للقارىء لافتا نظره الى انه لا يبغي من نقده سوى البناء والتقويم . والحق ان هذا التبرير خروج عن البناء العضوي ، وافتراض ساذج من المؤلف في ضعف وعي القارىء وتلقيه للعمل الفني ، ويستطرد في هذا التبرير حتى يلفظنا من الاستغراقة النغمية الخلابة . ان قمم الملحمة تتألق حينما يستغرق الشاعر في رسم الصور المدهشة ، والديالوج ، والمنولوج ، حينما يسخر ، بل وحينما يعلق من داخل الاحداث . ومن ناحية اخرى فان تفاردوفسكي يمتلك ناصية النغم الشعري ، ويستغل كل طاقات البحر الذي اختاره وعاء للملحمة ، ويسعفه في ذلك المقدرة اللغوية الجبارة ومع ذلك نحس بالرتابة احيانا من وحدة النغم والصوت .

من ناحية المضمون . فالخطأ الرئيسي ـ من وجهة نظرنا ـ ان كل النماذج التي ساقها مهصورة ومنسحقة وسلبية تماما . ويتبقى « تيوركين » وحده ، بامكانية استيعابه وتحليله للظواهر ، هو العنصر الايجابي الوحيد ، وفي هذا افتئات على هذا الشعب الذي قدم خلال تربع ستالين الاف الضحايا من الذين لقوا مصيرهم الاسود في منافي سيبيريا والاورال !!

اذا كانت ثمة صفة اساسية للشعب الروسي ـ وهذه من واقع خبرتنا ـ بجانب البساطة العجيبة ، فانها تتحدد في الشجاعة والنقد ، ان النفسية الروسية ـ مثل المصرية تماما ـ لديها استعداد خارق لفهم التناقض ، واستيعاب الشيء الذي يوضع في غير محله ، ويتخذ التهكم اشكالا

عدة تبلغ حد الصوت الجهوري ، او تنساب في تعليقات وسخريات « يومرية » .

واذا كان تفاردوفسكي رغم انه شاعر شريف من طراز عال ـ لم يصبه اذى خلال السلطة المطلقة وعبادة فرد ستالين ـ فان هناك شعراء وكتابا اخرين ، قد ضحوا بالسنين الطويلة من زهرة شبابهم في المنافي ومعسكرات الاعتقال ، وذاقوا الامرين ، ومع ذلك لم يفقدوا الامل في امكانية الخلاص ، وانتصار العدل والديمقراطية ، وعلى رأس هؤلاء الشاعر الروسي العظيم ـ باريس روتشيف ـ الذي نقدمه اليوم لقراء « الاداب » .

ان هذا الشاعر المتواضع المقل قد امضى في منافي سيبريا عشرة اعوام ، وفي معتقلات العمل المنهكة في الاورال عشرة اعوام اخر ، لقد كان عمره خمسة عشر عاما حينما تفتحت موهبته الشعرية في الاورال واخذ يكتب في الاربعينيات ـ وهي الاعوام التي تتميز بالبناء الجبار في سيبريا والاورال ، وتحويلهما من مناطق مقفلة لا قيمة لها ، الى الدرجة التي تعتبر اليوم اهم المناطق الصناعية ليس فقط في الاتحاد السوفيتي وانما في العالم كله ـ وفي هذا تتجلى مأثرة ستالين ونواقصه معا ـ نقول اخذ يكتب ويغني لوطنه من القلب في شعر عاطفي منبىء بقدرة غير عادية .. ويساق الشاعر ـ ذات يوم ـ الى منافي سيبريا. مع المجرمين والخونة والشرفاء في مكان واحد ، وكل ما صنعه انه يحب « النكتة » او ما يسمى باللغة الروسية Merggm ـ الشيء غير المتوقع . وهناك يلقى الاهوال، يتجمد بدنه ، ولكن قلبه يظل نابضا ودافئا .

ان الشاعر الذي صقلت المنافي موهبته ، يعبر عن الحرمان الصقيعي ، عن الكبت العاطفي والجنسي ، عن اللامعقول في الحياة . ولكنه يظل بالرغم من هذا العذاب الخرافي مشدودا الى الشمس والذكريات والامل في العودة الى داره وحبيبته التي اخلصت له الحب . وقد اخترنا من مجموعته ـ الشمس الحمراء ـ هذه الملحمة النموذجية ، التي اودع فيها عذابات السنين ، والحرمان المقيت ، والجوع العاطفي ، والتي تبلغ من الروعة والاصالة الى الدرجة التي لا يمكن ان يعبر بمثل مستواها وبساطتها وسخريتها وصدقها شاعر اخر لم يقاس هذه التجربة المتفردة !

لقد كتب « باريس روتشيف » ملحمته عام ١٩٣٦ ، صرخة موجعة من اعماق الجيل الشريف الذي كابد من اسطورة التأليه ، من تحويل الفرد الى مجرد « ترس » في جهاز الدولة تتحكم فيه سلطات الامن ، وتسحق كبرياءه الانساني ، ونعتقد ان نشر هذه المجموعة التي صدرت عام ١٩٦٠ يعتبر تحولا وانتصارا للفكر الديمقراطي في العالم كله .

ان اهم العيوب التي نلاحظها ـ بعد دراستنا للغة الروسية ـ في بلادنا وفي اوروبا معا : هي الحكم على الادب السوفيتي المعاصر من خلال الزوايا السياسية ، وما تثيره الاحداث العارضة في جرائد ومجلات الدعاية والتي تبني احكامها على قوانين الصراع بين المعسكرين ، بينما لا تلقى النماذج الحقيقية الاصيلة من النقد والاهتمام الا الشيء العارض الشحيح .

وسوف نحاول ان نقدم لقراء الاداب ـ متجردين الا من ضميرنا الفني ـ ما يعكس بحق انتصارات واضافات وعيوب هذه الثقافة العملاقة والتي تحتل ـ اردنا او لم نرد ـ مكانها الطليعي بين الادب الانساني المعاصر .

لن نقتل بالتحليل ملحمة ـ باريس روتشيف ـ وسندع القارىء يشتف منها صرخة الشاعر المكتومة المدوية ، واحتجاجه الذي يضج كالرعد على وضعه اللاانساني في مخالب الصقيع ، مومئين بايجاز الى ما عجزت الترجمة عن نقله :

ان « باريس روتشيف » يختار لكل مشهد الموسيقى الخاصة به . يعبر عن الرتابة بالنغم الهادىء الطويل الرتيب الذي يكاد ان يخنقنا ، وحينما تحوطه الذكريات يتألق النغم ويتدفق كالجدول الروحي ، ويجسد احاديث رفاقه حتى تكاد ان تخترق آذاننا قهقهاتهم الغليظة ، وسخرياتهم المرة ، وشبابهم المهصور ، وبعد هذا كله ، فللشاعر قدرة عجيبة على الانتقال من الخاص الى العام وبالعكس ، من الداخل الى الخارج ، من الخيال الى الحقيقة ، مستغلا الرموز والرؤي والاحداث البسيطة والكامنة في اللاوعي ، وبالاضافة فان سخريته حادة كأسنان الصخر ، ولغته روسية مقطرة ، فيها خشونة الحياة وواقعيتها التي ترتقي الى ما يشبه الاسطورة .

ونماذج « باريس روتشيف » بسيطة . بسيطة ، بعيدة عن تقعرات « الانتلجنسيا » واورامهم الفكرية ، نماذج لا تطمح الا للعدل والطمأنينة والحياة اللائقة بنا كانسانيين وفي هذا يكمن تفاؤله الاصيل وثقته التي لم تتبدد قط في الانسان .

موسكو — جيلي عبد الرحمن

***

الشمس المخضبة

للشاعر السوفيتي المعاصر باريس روتشيف

ـ ١ ـ

في انحاء روسيا التي لا يحتضنها النظر
والتي تتوارثها مثل بيت الابوة
نحن الشعب الروسي البسيط
غذاؤنا من التعب وعرق الجباه
وفي تايجي (١) حيث الغابات الكثيفة التي ترشها الثلوج
على قمم الجبال .. ومن اعماق المناجم
نسمي ما يعطى لنا من العيش « الخبز المعتقل » !
خبزنا .. قطع الخبز !!

١ ـ الغابات السيبرية المخضوضرة صيفا الموحشة شتاء والتي لا حدود لها تسمى تايجي

اخشوشنت جلودنا ـ بدون امرأة تلاطفنا ـ
زاحفين خلال الغابات والجبال
الغابات التي يجللها الدخان
نترك مواقد النار في الزوايا
ومن الغريب : اننا في هذه الاراضي الموحشة بدون اناس
نعيش بالجوازات !!
وانثنينا في الدروب المتحجرة ، شققنا الصخور
دلفنا صامتين نسقط في الثلوج
وها قد علمنا ونحن مقوسو الظهور
كيف ان الشرف المقدس : ثقيل وصعب

***

في البداية .. في صحارى الشمال
تركنا مشاعلنا الهزيلة تحترق
كل هذا القحط .. وكل هذه الاحزان
قطع الثلج الثقيلة .. الثلج الخالد
ليكن : لننقض عليه مرة واحدة في البداية
من أجل ان نحبه على مر الدهور !
وبالعادة حينما يدعونا الوطن
في سبيل كل ما بنيناه ، نقتحم معارك الموت .. ونموت !
وها أنت في البعيد على البحر الازرق
حزينة في مقتبل عمرك .
ـ لا تسمى اشواق المرأة المقدسة
جبروت الحزن ـ !
طريقي ، مشاعلي ، خيامي البعيدة
ترينها قريبة على مرمى ناظريك
تعلمي صبر الجنود !
هكذا تسميه امهاتنا ...
المعاناة جديرة حينما نقتحم القوى المواجهة
والشوق مفخرة خلال الحياة
حينما مرت السنون على روسيا
والآبـاء يتشبثون بالحصون .

ـ ٢ ـ

لو لم نكبر عاما بعد عام
لو لم نعش معا جنبا الى جنب
ـ لامكنني ان اخلب لبك قائلا
ان في المرأة جمال الروح والجسد ـ
لقد عرفتك في قميصك البسيط
وحذائك المنزلي ، العادي بلا تزويق
ولذلك فانت لا تضطربين ، لا تنهرينني ، لا احلم بك .
لقد اعتدت ان اعيش وقلبي بين يديك !
أنا مقتنع ـ انه لو لم يكن كذلك ـ فانه ليس من الممكن
هنا في هذا المكان الاصم .. في الشتاء الشمالي
على منحدر الجبل الحاد ، في ضباب الغاب العميق
ـ ان تتسامقي هكذا يا شمسي المخضبة ـ
يداي المتجلدتان من الصقيع
تحنان الى النار : وبلا دموع
ادخرتك ـ وحدك ـ اعواما
في عيوني الجافة المتقعة من الفراق
وانت ابدا حية .. وقريبة قريبة
كل شيء فيك لطيف ، متالق ، حي
تنسابين نحوي وعلى حواجبك الدقيقة الشابة المقطبة
اضطراب الامهـات !!
الثلوج تتراكم على سقوفنا تسوقها الرياح
ومثل الامس لم يكن ثمة شفق على السماء
وانا بين اليقظة والمنام فانني اسمع
« استيقظ يا حبيبي لقد حان الفجر »
ومشيت معي على منعطف الجبل
على النهر المتجلد .. من متكأ الى متكأ
اخذت بيدي حينما انهكت
وادفأت صدري ، حينما اقشعر البدن
تحسرت في الليل ، حينما احسست بأنني تعب
تنحنين على رأسي مثل الاخت الشفوقة
انفاسنا تتحد : هكذا توهمت
وادخرت حلمي حتى الصباح
حتى تعلمي انت : انه في هذا الصقيع الشرير
ـ مثل خفة اليد : البقية الاخيرة من قواي ـ !
لتكن صورتك القديمة قد اضعتها في الثلوج
ليكن ! لن استطيع ان امد خطاي في حجرتك
ليكن ! احببت احدا سواي ، فانا لن اصدق
لن اعطيك لاحد مـا !
ليكن كل هذا حقيقة : مثلما يضج الشتاء ويعوي
يخيل لي انني اكابد كل هذا ،
فانت حتى الان لم تنطفئي في عيني
هكذا قريبة مني في اليقظة والمنام .

ـ ٣ ـ

كما يسير المثل في كل الانحاء
في حياتنا ليس كل شيء كما تظنين !
ان وجدنا اللفائف ، لا نجد التبغ
وان عثرنا على التبغ ، ضاعت اللفائف
وذات مرة كنت فقيرا !!
خلال البحر البعيد ، سافرت بدون اوراق
ابحرت للشمال .. من غير ان ادخن
في مرارة الشوق يحدق قلبي في التبغ
وهكذا احدث شيء ما .. كأنه عن عمد
خطابك تحت يدي !
ذكراك .. كلماتك
افراحك .. احزانك
كأنني اقرأه لاول مرة
مع انني احفظه عن ظهر قلب !
هكذا دخنت ليلا ونهارا
قبل النوم .. وبعد اليقظة
وبالمناسبة .. دخنت الخطاب
حتى لم يبق سوى النهاية ،
كأن شوكة استقرت في قلبي
تهاديت وجلست الى جانبي
كأنني اتلمسك في دخان التبغ
ماذا يمكن ان اقول لك ؟؟
كيف استطيع ان احدق في عينيك ؟
هكذا وضعت الخطاب في كيس التبغ
لقد ادخرته اعواما .. على صدري في ثنايا الثوب
خلال الرياح .. خلال النيران
خلال النهيرات ، خلال الواح الثلوج العائمة
وحملته خلال العمل
وصنته من الامطار

وضعته تحت الاحجار
تحت ثقاب الكبريت
وحتى لا يلاحظ احد من اللصوص خبأته
كأنه دمي واغلى ما ادخره
كأنه اعز ما املك ..
ومثل المعجزة ، لم يبل هذا الخطاب
وفيه سطورك القليلة التي شحبت
نقاط الحبر ساحت من زمان
في كل الطرق النائية ، في شعاب الغابات الضبابية
ها هو الكبر يدب في احنائي
كما دب في خطابك الصغير
ومن جديد يعتصر في الشوق لحظات
ومن جديد تفمرني السكينة
حينما كتبت « اقبلك »
وفي الامضاء « انا لك »

— ٤ —

ومع الفجر اذهب الى العمل الشاق في المناجم
وتطير عيوني تتسلق قمة الجبل
وتحط في المكان الذي يجلله الدخان العميق
حيث تعيش امنيتي الوحيدة
ـ ومن الممكن انني شخصيا لا الاحظ ذلك
كما يحدث دائما ان يضل الانسان ـ
اقول لها .. كلمة اللقاء
« صباح الخير يا فجري (١)
وحينما تفر هذه اللحظة
تتبلل احداقي .. كأن ثمة نسيما رطبا عبقا
ولا ادري لماذا يصبح سهلا ،
الدق بالمطارق والفئوس الحادة ؟!
وعلى الهواء اخلع ملابسي بطمأنينة
ولا يتصبب العرق على وجهي
طوال النهار : صامتا ادق الاحجار الشمالية الخالدة
اضرب واضرب حتى يغلى الدم في عروقي
حتى يطير اليوم بلا ذكريات !
حتى انام الليل مثل العربيد !
ومثل لحظة الفتيل المشتعل
تنفجر اشواق الاعوام
اشهقها مرة واحدة
وهكذا في الدخان العميق
احمل مطرقتي واسير بلا هدى
تنسحق المتاعب التي لا استطيع لها عدا
حتى يتساءل كل الناس مندهشين من جلدي !
كيف يحدث هذا ؟ من اين لك هذه القوى الدائمة ؟
كم كبرت من الجبال والانهار والصعاب
ولكنك على اية حال لا تشبه البطل !
وحينئذ ـ لاول مرة في حياتي لا اكتم سرا
« لست يا اخواني خبيرا بالاعمال الشاقة التي تقصم الظهر
ان فكري يسبح في مكان ما بين الحفر
اعتصر قلبي .. حتى سقط ! »
اترين ؟ لقد ساعدتني بعملك الخير فلم اسقط
في المكان المضبب العميق !
كأنني منحت في طفولتي من الوراثة
عظما صلبا .. ورأسا صلبة
مرة اخرى شكرا : في جبل الاورال
ساعدتني امرأة واحدة
وهي نفسها لا تعرف
لماذا ؟ وكيف انها قوية الى هذا الحد ؟!

— ٥ —

الدب (١) الذي يكابد دون احلام
كأنه في ليل معتم
ارتفع صوته من كومة القش والجليد
لم يخش ان يتجمد في البرد
طول الشتاء يجرجر خطواته في الدروب
عبر الصقيع الفولاذي ، عبر عواصف الثلوج
عبر الشواطىء الصخرية
قابله سائقو العربات
مخالبه المفطاة تمسح كتفيه !
انتصب على قوائمه الخلفية ، في مواجهة العاصفة
يدلف الدب تماما في صورة انسان
لتكن : معجزة حدثت في عالمنا
ولكنني اؤكد كل ذلك في شيء واحد :
ـ في ارادة طيبة ينام الدب هادئا مطمئن الخاطر
وليس ثمة واحد من الدببة لا يجول في خواطره او يريد
ان ينعتق من مكمنه الى شاطىء النهر ـ
وحدي هنا اجول في الطريق
الفرو الثقيل مشدود على الجانبين
كأنني اشابه الدب في هذا العالم الضبابي !
وحدي تتلعثم خطواتي في الصقيع .
اجوس مثل الاعمى ، كأسطورة الارض الشمالية
ترى ؟ هل المسهد المفروح العينين مثلي
يمكن الا يمنحه القدر :
القدرة على تدخين التبغ ؟ ان يتعذب شوقا لداره ؟
ان يناجيك عبر الاف الاميال ؟
ان يهرول امام العاصفة الهوجاء !
ان يجلس على الجليد حتى يراقب مطلع الفجر ؟!
عيناي في البعيد مشعلتان مضيئتان
ومع كل هذا فانني لا استشعر المهانة
من هيئتي المضحكة المتوحشة مثل الدب !!
في صخب الحياة تتغير ملامحنا
هكذا نعيش كما يشاء الوطن
انه يرمي بنا في لطف وفي قسوة !
في الصقيع المر ، وفي الهجير الذي لا يرحم
عبر كل الانحاء : هناك طريق واحد
ادخره لنـا الوطن
يعلمنا السعادة والامـلاق
يمنحنا الغطاء الذي نرتديه على الكتف
لقد قضى ان اعيش دبـا !!
ان اخترق الفضاء مثل الصقر
وليكن : لتحلمي بي في هذه اللحظات

١ ـ كلمة الفجر في اللغة الروسية تأخـذ دلالة حلوة معينة لان الفجر طويل فائق الروعة

١ ـ الدب يدفن نفسه تحت اكوام الثلوج وألقش في سيبريـا طوال الشتاء حتى لا تتجمد عظامه

فالثلج على النهر الابيض الشمالي
الطريق يتلوى على الشواطىء كالثعابين
في امتداد الطريق تصفر العاصفة
وها انذا امسح بمخالبي الجليد عن الكتفين
ان يتقد قلبي في الشتاء : هذا ما احاوله
وبكل امتداد قامته : يجوس كالانسان
هذا الدب الذي يكابد بلا احلام !

— ٦ —

في الواحدة بعد الليل .. بلا توقع
استريح لحظات قليلة
والى الغرب في عجلة ارحل
ومن جديد الى الشرق
بالاوامر الحديدية نتابع رحلتنا
بالحمل الثقيل الخالد
ليلا ونهارا تعبر السيارات
وفي الصقيع الشمالي
تجمدنا في الطريق قليلا .. حتى العظام !
ونحن لا نعرف نهاية المطاف
تتدلى اعناقنا كالمشانق
يصفع الشتاء الاوجه فنلعنه
وفي البعيد .. نخاف ان نحدق في البعيد !
وخلال الصدف غير الموفقة !
نجوع ، وليس لدينا تبغ ندخنه
ونحن كالاطفال احيانا . لا نبكي !!
نقول سوف يأتي صبح ما
افكارنا حزينة بلا جدوى
لقد اصبحنا حمقى من البرد !
نوافق ان نعطي نصف حياتنا
قمنا للحظات من الدفء
وها نحن من جديد وقد اوغل الليل
لا نرى على جوانب السيارة الخشبية قبسا من الضوء
جاري البردان يهز كتفي بقوة :
« اسمع يا حبيبي من اجل « شلتنا » (١)
اعمل معروفا .. وحدق في البعيد
الا ترى قبسا من الضوء .. ابدا لا ترى في الامام ... لا ترى ..
عيناك حادتان وشابتان »
امد عنقي من الصف .. الى البعيد
والريح تجعد جلد الوجه
خمس دقائق احدق في الامام ..
ترسب الثلج على رموش العينين وحوافيها
لا ارى غير رءوس الجبال خلال الطريق
مرتفعات ، منحدرات ، شواطىء صخرية
ليس ثمة نأمة ، ولا همسة
لا امل فـي مشعل .
لا امل في تصديق العين ،
التي لم تتعود على العتمات
ومن جديد ارمي بهيكلي في السيارة
الحقيقة المرة في عقولنا تضطرب
وبطمأنينة اكذب على جاري
جهوري الصوت حتى يسمع الجميع :
يا اصدقائي قد حانت الواحة
هناك مشعل في البعيد .. البعيد
وبيسر اكثر .. استقبلنا قسوة الجليد
وتنفسنا ريحا شمالية(١) دافئة !
وتخففنا من ثقل احزمتنا
وقليلا .. نشد ظهورنا للوراء
شخص ما يصرخ ، ليستجدي الضحك
واخر يغني موالا قديما .
يمكننا من جديد ان نتابع رحلتنا
وفي القلب نرى الحقيقة التي تشعله
الحياة صعبة مثل الطريق .
لهذه المشاهد الشتائية لم اكن مستعدا !
وانا شخصيا اتعذب كثيرا ،
من البرد الذي يكشف روحي
لانني شخصيا لا اعرف من يملك قبسا من النار !!
حبيبتي .. يا اخت روحي
انتظرتني عاما بعد عام .. عبر شواهد الطريق البعيدة
ها انذا امزق قلبي من اجلك
على النار التي لا تواتيني
ليكن : ليلفظ الناس من حولي في كل مكان
لا تحدق « يا بلدينا » في الامام
ليس هناك احد يحبك !
ليس هناك احد ينتظرك !
انني لا اصدق هذه النظرات العمياء في الظلام
ها انذا اهذي مع نفسي في صندوق العربة
احتك بجاري .. لعل بعض الدفء !
ان يكون الدرب طويلا .. هذه ليست مهانة !
قريبا يا صديقي نثوب
هناك قبس في البعيد !!

— ٧ —

تحت السماء المكفهرة الزرقاء(٢) دائما
نتجرع الحساء مع الخبز الاسود المتعفن !!
الشاي الاسود نحتسيه مع احزاننا السوداء
نخلع جلود معاطفنا ونقتحم الجليد
اينها المرأة البعيدة لا تحزني
تخيلي ان دارنا في كل مكان
ونحن لا نؤمن بالحب من زمان
وذلك لاننا رجال .. وهذه شيمتنا
المصيبة ، والادقاع ، القيظ ، والريح الثلجية
صابرون على كل ذلك .. بلا شكوى
اننا لا نتعارك لاي سبب
كل له شوقه واحزانه التي تعتصره
حينما نتذكر اعز احبابنا ،
ليس في مقدورنا النوم .. ولا نستطيع السكوت
فان ذكرياتنا تشتعل بالبانزين
وبحقد عال نضحك ، وبسباب فظ

---

١ — هنا يستغل الشاعر في الديالوج اللغة الروسية الشعبية المصفاة ويجسد المشهد دراماتيكيا

١ — الريح الشمالية شديدة البرودة وهنا يتهكم الشاعر ، أن سخريته تتسلل في كل بيت من شعره

١ — السماء في الشمال المتجمد زرقاء بغير حد ، تتميز بلونها العجيب المثير .

نسخر من النساء الضعيفات الماكرات
« الايمان بهن لا يساوي مليما واحدا » (١)
كاننا لم نعرف في موقع صبانا
الافواه البريئة ، العيون الصادقة
ونجتمع حينما تدلهم الطبيعة
وبصوت عال نحكي ذكرياتنا بلا اصباغ
« كان يا ما كان ومزقت قطعا
خطاب زوجها الرقيق الابيض الورق »
« ـ انهن نساء من يمنحهن المعاناة ؟؟
« ـ في شبابنا طوقوا اعناقنا من الرغبة ـ »
كان الحديث صاخبا ومتألقا .. وقصيرا
الاسرار والاشواق على الشفاه
« ـ كانت ارتعاشاتهن حلوة في الحر الشديد !
« ـ كانهن لا يستطعن النظر في احداقنا
« ـ في هذا الوقت ـ يا صديقي ـ كانت عيونهن معتمة ! ـ »
الكلمات الحاقدة بدون حياء
كان الغيرة لم تلهب احاسيسنا من قبل .
« اعرف المرأة كلها .. حتى بقع جلدها الخفية »
ولكنك تستقرين في روحي كانك دارنا
تعيشين كالشمس(٢) في الروح
كل ما تحدثنا عنه في البعيد البارد
حديث رجال غير طيب
كلما ابتعدت عني فانت اغلى
انت كالشمس على الجبال المحدودبة
كالشمس المضيئة . حينما نجلس بجانبك
والذي لا يؤمن بك ، بالنظرة البخيلة التي تعميه ،
يرى عليك ذرة الغبار !
نحن نلاطفك في مجرى احلامنا
على القمم والصخور تحفر كل اسمائك البسيطة
وفي النار نحترق ، وفي البرد نتجمد
عبر الجبال والانهار والصحارى
بخفة ايدينا نشرب احزاننا حتى نسكر
من اجلك ندفن النار في رماد اعماقنا !
ومن اجلك اصبحنا كالاساطير
لا تقاضينا بهذا الحديث فقلوبنا نقية وقاسية
« يا مليكتي(٣) انت جميلة ومزهوة الريش كالبجعة
في قصرك الجميل الريفي »

ـ ٨ ـ

بين المصنع والمدينة ينساب النهير
وفوق مجراه دار معرشة بالحطب
حينما يعصف الشوق تأمل ذلك السقف
حيث يتمدد وجه محدق في الشمال .
متقاربان كاننا في اسطورة تفيض بالطيبة
نفتح اعماق قلوبنا . ولا مفاتيح في ايدينا
نخترق المسافات الشاسعة ، والليل وشوشة وصفير
ومن العجيب ان الجبال لا تتطاول الى المناكب ، والنهير لا يبلـــغ حتى الركب !
الماضي لا يزال متدفقا ، والاغاني قريبة لا تزال
في كل شهقة نصغي الى دقات قلبينا
وعبثا يهرول عمال المدينة الى المصنع
كان سرا ممتعا يخبون به نحوك !!
متلاصقان قد انهارت المسافات بيننا
اشتعل الرأس شيبا ، والحب ممتلىء فتوة
في انتظارك الاسيان : لهفة الفتاة ، وحب الخطيبة
صبر الجندي ، وانتخاب الارملة
على ما يرام .. ها هي دوامة الثلج تتلاشى
ها قد اطلق سراحي .. على متن الطائرة اليك
دقاتي على كوة الدار ، خلال اسبوعين
وربما خلال شهر ، وربما خلال عام
وربما من اجل الحقيقة اظل مكبلا !!
وربما من جديد تتمطى السنون الطويلة
نزرع الصحاري ، ونحرس الحدود
والزمن لا يعني بنا ، ولا نحس به
ان داهمنا عمل ما : قامت الحرب مثلا
او تحسست طريقي في ضباب العالم اعواما
وانت وحيدة في الدار قد اصابتك الشيخوخة
ـ فنحن لا نجد حتى الان كلمات نعبر بها عن الفراق ـ
من الصباح حتى العشية انتظري خبرا ما ..
لا تتحسري لو تمزقت اوتار قلوبنا المشدودة المرنة
فان كان هذا موجعا : حدقي من سقف دارنا ،
الى الشمال البعيد .. بنظرات رحيمة
حيث تمسح الرياح الثلجية اثار اقدامي
في طريق النهر الغابي ، ومنحدرات الجبل البعيد

ترجمة جيلي عبد الرحمن

١ ـ في هذا الديالوج يبلغ الشاعر قمة فنية ، يستقي من الفولكلور والواقع والخيال ويبوتق كل ذلك في نفسه
٢ ـ الشمس هنا رمز الدفء والحياة الانسانية البسيطة وعذوبتها في الاصل الروسي لا يمكن ترجمته
٣ ـ مرة اخرى يستقي من الفولكلور ابياتا عذبة تضفي على اللحمة جوا شعبيا ملهما

صدر حديثا :

سلطنة الظلام في مسقط وعمان

بقلم

عوني مصطفى

الثمن ١٥٠ ق. ل.

دار الاداب